الفصل الحادى عشر
الحقيقة فى فن الرباعى ورباعيات الخيام

الرباعية أو فن الرباعى ابتداع فارسى من أصل عربى، والذين توفروا على هذا الفن هم الشعراء الفرس المستعربة، أو الذين ينحدرون من أصول عربية، وذلك لأن هذا الفن يقوم على **بحر الهزج** من العروض العربى، فلماً كانت الرباعية تتألف من أربعة أشطر، وكل شطر منها من أربع تفعيلات، فيكون البيت من ثمانى تفعيلات، وبحر الهزج ليس ثمانياً، فإنهم اعتبروا الشطر بيتاً، وبذلك يكون البيتان من الشعر (الدوبيت) ليسا بيتين على الحقيقة، ولكنهما أربعة أبيات، أو ما أطلقوا عليه بالفارسية اسم «رباعى».

والرباعى يُنشَد كالمواويل، وهو من الفنون الشعبية، وروّج له الصوفية، إنْ لم يكونوا هم أصلاً الذين ابتدعوه.

وشعراء الرباعى الذين عُرفوا به فى الأدب الفارسى أربعة هم بالترتيب: **أبو سعيد بن أبى الخير** المتوفى سنة ٤٤٠هـ، **وبابا طاهر الهمدانى** المتوفى سنة ٥٢٦هـ، **والشيخ عبد الله الأنصارى** المتوفى سنة ٤٨١هـ، **وعمر الخيام**، وقد ألمحنا إلى أن وفاته فى الربع الأول من القرن الخامس الهجرى. والثلاثة الأوَل من مشايخ الصوفية الكبار، وشعرهم الرباعى الصوفى من التراث الأدبى الشعبى، وقدّمهم فيه الشاعر الصوفى المصرى الأشهر **عمر بن الفارض** (٦٣٢هـ)، فقد كان القوّالون يُنشدون شعر أبى سعيد الأنصارى بين يديه، وكان يهتز له طرباً فيبتدع من نفس البحر مشايعاً لهم، ولهذا قيل إن ابن الفارض كان أول من أدخل فن الرباعى من شعراء العرب.

ولعل انتساب الشعراء الثلاثة – أبى سعيد والهمدانى والأنصارى إلى التصوف، يجعلنا نميل إلى أن نظن بالخيام ميولاً للتصوف كذلك، طالما أنه يأتى تاريخياً بعدهم وورث عنهم هذا الفن وتابعهم عليه، وكان من مدرستهم.

ويُروى فى ابتداع فن الرباعى أن **الأمير يعقوب بن الليث الصفّار** شاهد ولده الصغير يلعب الجوز مع أقرانه، فألقى بجوزته وأثناء جريانها كان يقول مع حركتها «غلتان غلتان همى رود تابن كو»، أى تذهب متدحرجة متدحرجة إلى أن تدخل الحفرة وتستقر. وأعجب الأب بابنه فقد كانت مقالته موزونة، واعتبر صدورها منه بالسليقة الشعرية، فلمّا قصّ القصة على جلسائه من أهل الأدب أيدوه على زعمه – كما يقول دولتشاه صاحب تذكرة الشعراء الذى أورد القصة – وردّوا عبارة الصبى إلى بحر الهزج من بحور العروض العربية، وزادوا على

العبارة شطراً ثانيا ليجعلوها بيتاً، ثم أكملوا البيت ببيت من نفس الوزن والقافية، وقالوا عن ذلك **دوبيتى**.

وتفنّن الشعراء فى أوزان الهزج فجعلوها أربعة وعشرين، ولم يوجد شاعر – مهما عظُم شأنه أو قلّ – إلاّ ونُسبت إليه رباعيات. واستُخدم هذا الفن فى الأقوال الشعرية المرسلة ذات الفكرة الواحدة، وللتعبير عنها بإيجاز شديد، وكأنهم يجعلون من الفكرة حكمة. ثم فرّقوا بين فن الدوبيتى وفن الرباعى، فرغم أن هذا وذاك يتكون من أربعة أشطر، إلاّ أنها فى الرباعى يُشترط أن تكون على أىٍ من الأوزان الأربعة والعشرين من الهزج، وإلاّ فهى من الدوبيتى. فإذا كانت الأشطر من هذا البحر وكانت كذلك مقفّاة فالرباعى يسمى **كاملا**، وإنْ شذّ المصراع الثالث عن المصاريع الثلاثة الأول والثانى والرابع فهو الرباعى **الأعرج**.

ولعل سهولة التأليف فى الرباعى لقصره وخفّة أوزانه واشتماله على فكرة واحدة، جعل من الممكن انتحاله على الشعراء والإكثار منه. والخيام مثلاً يذهب الثقات إلى أنه لم يؤلف فى الرباعى إلا مابين العشر إلى الأربعين، وربما الستين رباعية. ومع ذلك نُسبت إليه آلاف الرباعيات، حتى قيل إن إحدى مخطوطات جامعة كيمبردج حوت ثمانمئة رباعية. وقدّر **المستشرق رونن** أن الرباعيات فى جملتها قد تصل إلى خمسة آلاف رباعية. وهذه الظاهرة نفسها تتكرر مع أغلب شعراء الفرس وعانى منها أبو سعيد بن أبى الخير فأنكر عليه البعض أن تكون له رباعيات، وأكدوا أن ما ينسب إليه منحول عليه، وأنه لم يكن شاعرا أصلا، وأثبت له البعض ما بين ثلاثين إلى ستين رباعية.

والثابت أن الكتب القديمة لم تتحدث عن الخيام كشاعر، وإذا ذكرته بهذه الصفة فقلّما تورد له شيئا. ويبدو أن **العماد الأصفهانى** المتوفى سنة ٥٩٧هـ كان أول من نبّه إلى أن له شعراً عربيا، وأورد له ثلاثة أبيات ذكرها فى كتابه «خريدة القصر»، ثم كان **فخر الدين الرازى** المتوفى سنة ٦٠٦هـ أول من أورد له شعراً فارسياً، وكان ذلك فى كتابه «**التنبيه على بعض الأسرار المودعة فى بعض سور القرآن العظيم**»، ولم يتعد ما قدّمه له الرباعية الواحدة. وأخيرا كان **الشهرزورى** هو أول من أكد شاعرية الخيام فى اللغتين العربية والفارسية معا.

والمخطوطات التى تُكتشف وتُنسب إلى الخيام يتزايد عددها باستمرار، وكلما اكتشفت مخطوطة تبيّن أن بها عدداً جديداً من الرباعيات لم تضمه المخطوطات الأخرى. والنسّاخ والميول والأهواء تلعب دورها فى إنقاص أوزيادة العدد، وفى نسبة ما يشاءون من الرباعيات.

والحذف والإبدال والإدخال ظواهر مؤكدة فى شعر الخيام. والبحوث فى مجال هذه المخطوطات كثيرة، والرباعيات التى تشتمل عليها متفاوتة، والتواريخ التى تعود إليها شديدة التباين، حتى قال أحد النقاد الفرس إن هناك فيما يبدو ما يشبه المصنع فى طهران لفبركة هذه الرباعيات التى تعجب الباحثين الغربيين ويجزلون فى ثمنها العطاء. وانتقى أحد الباحثين وهو الروسى زوكوفسكى ١٢١ رباعية قال إنها القاسم المشترك بين كل المخطوطات وتتردد فيها جميعا تقريبا، وبيّن أن مالا يقل عن ٨٢ رباعية قد وردت فى مخطوطات وكتب أخرى منسوبة إلى شعراء من الفرس، وأن النصف تقريبا من هذا العدد من الرباعيات اشتهر به ثلاثة وهم فريد الدين العطار وحافظ الشيرازى وجلال الدين الرومى، والنصف الآخر عثر على ما يشبهه عند ابن سينا وأبى سعيد بن أبى الخير والعسجدى ونصر الدين الطوسى والفردوسى والأنورى وعبد الله الأنصارى، وأطلق عليها لذلك اسم الرباعيات الجائلة أو الشاردة Wandering Quatrains لأن مؤلفها غير معروف يقينا.

وأدّى التضارب فى عدد الرباعيات والإنكار لبعضها بمناسبة القبح الذى عليه، والشك فى بعضها – أدّى إلى أن يعلن شيدر أحد علماء الاستشراق الألمان فى مؤتمر الاستشراق ببون سنة ١٩٣٤ «أن الحكيم والعالم الرياضى عمر الخيام لم يؤلف رباعيات. وأن هذه الرباعيات المنسوبة إليه هى صورة من الشعر الباطنى الذى اشتهر عن العصر الذى سيطر فيه المغول وشاع فيه الفساد أيام حُكم آل سلجوق، وأنه قد آن الأوان أن يُغلق ملف الخيام الشعرى للأبد، وأن يحذف اسمه من تاريخ الشعر الفارسى!!»

وهذا الإنكار للرباعيات الإباحية تولاّه مستشرقون، وقد هالهم أن الاكتشافات بخصوص المخطوطات قد زادت حتى بلغ عدد المخطوطات أكثر من مائة مخطوطة.

والغالب أن النساخ كانوا كلما أعجبتهم رباعية فيها إلحاد وحاروا لمن ينسبونها، استسهلوا أن يرجعوها إلى الخيام. والغالب أيضا أن المقلدين للخيام كثروا من كل المذاهب، وكانوا ربما من أهل الفلسفة، أو من اللاأدريين، أو الشكّاك، أو الملحدين، وبعضهم ربما كانوا من المُجّان وأرادوا التغنى بالخمر والهوى، أو قد يكونون من المتصوفة الذين أعجبتهم الرباعيات الخمرية وأولوها تأويلات تعجبهم فنسجوا على منوالها، أو ربما كانوا من الزّهاد فألفوا على طريقة الخيام رباعيات تزدرى الدنيا وتحط من شأنها. وكل ذلك قد اختلط برباعيات الخيام نفسه حتى ماندرى ماله وما ليس له، وأُدرجت ضمن رباعياته كل رباعية

شاردة لم يعرف لها صاحب، أو كان صاحبها مغموراً واعتبرت مجهولة النسب فألحقت بالخيام. وتلك جريمة النسّاخ الذين لم يفّوتوا شيئا مما يمكن أنْ يُنسب إليه، وأضافوا إلى الرباعيات كل ما اعتقدوا أنه يمكن أن يكون للخيام، طلباً للكمال ربما، أو برجاء الاستكمال – هذا جائز. وحرّفوا البعض لتمام المعنى أحيانا، أو إنكائه أحيانا.

ويذهب البعض بعد التمحيص الشديد – مثل **محمد علي فروغي** في كتابه **رباعيات حكيم خيامي نيسابوري** – إلى أن الرباعيات التي يمكن نسبتها حقاً إليه هي ست وستون رباعية، رواها أقوام من الفرس أقدم عهداً من أقدم نسخة متاحة من الرباعيات، فما كان من الرباعيات مناسباً لهذه الست والستين أضيف إليها، وما لم يكن مناسباً فهو لغير عمر الخيام.

ويقول فروغي إن هذا الرباعيات الست والستين التي يصح الاعتقاد أنها للخيام، تبدو بسيطة لا زُواق فيها ولاتصنُّع، بل إنها لينقصها الخيال الشعري حتى ليمكن أن يقال إنها لاتملك من الشعر غير الوزن والقافية، ومع ذلك فهي في غاية الإيجاز والإحكام والبلاغة، وتتقيد بأداء المعنى، ومعانيها تلطف وتدق حتى لتسمو على كل تصنّع وتكلّف، ومضمونها لايمكن إلا أن يكون لحكيم متفكر. ويكتفي فروغي بأن يجعل من الرباعيات ما لا تكرار فيه، وما يليق بطبع الخيام المتفلسف، وهذه لايزيد عددها عن ١٧٨ رباعية.

ويبدو أن **منهج الاصطفاء** هذا هو المنهج الأمثل في التعامل مع المخطوطات، ومع مانسمع من رباعيات تُنسب إلى الخيام. والمقصود بهذا المنهج أن نصطفي مما يقال الذي ينسجم مع التاريخ العلمي للخيام، ومع ماقيل في شخصيته، ومع رسالاته الفلسفية – وذلك هو الأهم – فهذه الرسالات هي المعيار الحقيقي الذي لابد أن تُقاس إليه أفكار ومضمون أية رباعية – فما لايتفق مع الفلسفة التي تبشر بها، والتوحيد الذي تدعو إليه، والإيمان الذي يشيع بين ثناياها، والأخلاق التي تحضّ عليها – أقول ما لايتفق وكل ذلك فلابد من رفضه والإنكار عليه ودحضه ونبذه!

*****